تجسيد الوضع السياسي للعراق في شعر الجواهري

الدكتور منصور نيك پناه
أستاذ مشارك في اللغة الفارسية وآدابها بمجتمع التعليم العالي بسراوان، سراوان، إيران
m.nikpanah@yahoo.com

Reflecting the political situation of Iraq in Javaheri's poetry

Dr.Mansour Nikpanah
Associate Professor of Persian Language and Literature at Higher Education Complex OF Saravan , Saravan , Iran

الملخص:-

يعد الشعر وسيلة قيمة لنقل المعتقدات والتطورات الاجتماعية والسياسية لمختلف البلدان. وتنتشر كلمات الشعراء، كغيرهم، شفهياً في مختلف الأوساط والتجمعات، وتستخدم كأحكام حاسمة في المحاكم. ومن الطبيعي في مثل هذا الوضع ألا يكون الشعراء غير مبالين بتطورات المجتمع بسبب تأثير كلماتهم. يهدف المؤلف في هذا المقال إلى دراسة انعكاس القضايا السياسية الاجتماعية في شعر الشعراء العراقيين، وتحديداً في أشعار محمد مهدي جواهري، شاعر هذه الأرض المعاصر. يتناول هذا المقال مجموعة قصائد الشاعر بأسلوب وصفي وتحليلي ومكتبي. وتظهر نتائج البحث اهتمام الشاعر الخاص بالتطورات السياسية في العراق والتعليق على الجماعات والأحزاب السياسية في بلاده.

الكلمات المفتاحية: الجواهري، حزب اليسار، حزب البعث، مناهضة الاستعمار.

Abstract:-

Poetry is a valuable vehicle for conveying the beliefs and social and political developments of different lands. The words of poets, like others, are spread by word of mouth in various circles and gatherings, and are used as decisive verdicts in courts. It is natural that in such a situation, poets have not been indifferent to the developments of society due to the influence of their words. In this article, the author intends to examine the reflection of social political issues in the poetry of Iraqi poets and specifically the compositions of Mohammad Mahdi Javaheri, a contemporary poet of this land. This article examines the collection of the poet's poems in a descriptive, analytical and library method. The results of the research show the poet's special attention to the political developments in Iraq and commenting on the political groups and parties of his country.

Key words: Javaheri, left party, Baath party, anti-colonialism.

١ـ المقدمة:ـ

ولد محمد مهدي جواهري عام ١٩٠٠ في النجف الأشرف، في عائلة ذات خلفية علمية وأدبية وشعرية لامعة. وكان لذلك أثر كبير في تكوين شخصيته الشعرية والأدبية. وتعود شهرة عائلته إلى الشيخ محمد حسن جواهري، أحد كبار علماء الفقه، الذي ألف كتابا بعنوان "جواهر كلام في شرح قانون الإسلام"؛ ويعد هذا الكتاب من الكتب الثلاثة التي يجب قراءتها في المجالات الدينية للوصول إلى مستوى الاجتهاد. (البصري، ١٩٩٤، المجلد ٣: ٤٧٢).

وكان الأب يعقد صباح كل يوم جمعة اجتماعا بحضور العلماء وعلماء الدين الكبار، ويطلب من المهدي أن يحضره. في طفولته، وبناء على طلب والده، كان يحفظ كل يوم خطبة من نهج البلاغة، مقطعًا من أمالي أبو على قلعي، وقصيدة من المطربي. "كان يحب التعبير عن مشاعره الداخلية الخفية في هذا السن ليستفيد كثيراً من الشعر". (توفيق بيزون، ١٩٩٣: ٢٠) كان الجواهري مهتماً جداً بالبلاغة، وكان موضوعاً جميلاً جداً بالنسبة له؛ لأنه رأى أنه يختلط بالشعر في أسوأ الأحوال، في موضوعات الاستعارة والإشارة. (الجواهري، ١٩٨٨، المجلد ١: ٦٦-٦٧).

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى، واحتلت القوات البريطانية البصرة، ثم توجهت إلى الكوت، ثار الشعب العراقي وبدأ في مواجهة الغزاة البريطانيين. وفي هذه الأثناء ذهب والد جواهري أيضاً إلى ساحة المعركة مع المقاتلين وقوات المقاومة، وبعد فترة عاد إلى النجف، وتوفي بسبب المرض عام ١٩١٧. (البقيلي، ١٩٧٤: ١٢)

وفي هذه الفترة، عندما كان الجواهري صغيرا، كتب قصائد ضد الإنجليز، ودعا الشعب إلى الثورة، وعندما اندلعت ثورة العشرينيات بقيادة علماء الدين عام ١٩٢٠م، كتب الجواهري قصيدة "الثورة العراقية" للأبطال الثوار، وكرّم بشكل خاص قائد الثورة ميرزاي الشيرازي، ودعا الأمة إلى التوحد في النضال وترك الخلافات الدينية جانباً. (الجواهري، ١٩٨٨، المجلد ١: ١٠٧).

ليس من السهل مواجهة هذه الشخصية الشرسة والمتناقضة ومعرفتها والكتابة عنها؛ لأن هذه الشخصية المضطربة صنعت جوهرة شعرية لا تعوض. (شعبان، ١٩٩٧: ٦).

هاجر الجواهري من العراق أربع مرات لفترة طويلة. المرة الأولى كانت إلى باريس عام ١٩٤٨، والمرة الثانية كانت إلى مصر عام ١٩٥٣، والمرة الثالثة كانت إلى براغ في تشيكوسلوفاكيا والتي استمرت لمدة سبع سنوات من ١٩٦٢-١٩٦٩، والمرة الأخيرة كانت إلى دمشق عام ١٩٧٩. ولم يرجع إلى العراق. ومن أسباب هجرته، عداوته للحاكم السياسي، وخلافه مع الطبقة المثقفة العراقية المعاصرة، التي لم تكن لديها معايير أخلاقية واضحة، وتمسك أكيد بالمعايير الأخلاقية، وعدم قبوله وإنكاره للمنظومة القيمية. حكم المجتمع الذي لا يعتبره أخلاقياً - كان يعلم أنهم كذلك (توفيق بيزون، ١٩٩٣: ٤٥).

عمل صحفياً لمدة ثلاثين عاماً تقريباً. وفي هذه الفترة بدأ بكتابة المقالات التي تعبر عن المصائب التي حلت بالدول العربية والعراق. وأظهرت كتاباته نزعته الثورية وإحساسه الكبير بالمسؤولية تجاه الأحداث الجارية في العراق في ذلك الوقت. وفي عام ١٩٣٠، أصدر صحيفة "الفرات" السياسية وانحاز فيها ودعم نوري سعيد، الذي كان رئيس الوزراء وأحد العملاء المرتزقة للبريطانيين لتنفيذ أهداف تحررية ظاهرية. لكن هذا الدعم لم يدم طويلا. وبكتابته مقالاً قاسياً ضد العديد من موظفي وزارة التربية والتعليم، قطع علاقته بالحكومة، وبعد ذلك تفاعل شيوخ ذوي النفوذ الوزاري ضده، وصدر الأمر بإغلاق صحيفة الفرات، وكان الجواهري وحكم عليه بدفع تعويض يعادل مائتي روبية في ذلك الوقت، وتم إدراجه في قائمة معارضي نوري سعيد. (العلوي، ١٩٦٩: ١٨٠).

وفي عام ١٩٣٦ أصدر الجواهري صحيفة "الانقلاب". مثل الصحيفة السابقة، لم تصمد هذه الصحيفة طويلا. وحتما غَيَّرَ اسم الجريدة إلى الرأي العام، وبدأ في نشرها. وفي عام ١٩٤٦ منحته الحكومة امتياز صحيفة "صدي الدستور". وفي عام ١٩٤٨، انتفض الجواهري مع الأمة العراقية ضد اتفاقية بورتسموث، وغنى قصيدة حداد على أخيه جعفر. وبعد ذلك مُنع من نشر صحيفته. (العلوي ١٩٦٩م ١٨١).

وفي عام ١٩٥٣، أصدر صحيفة "الجهاد" لمدة ثمانية أشهر، ثم اضطر إلى مغادرة العراق والهجرة إلى مصر، وبعد انتفاضة ١٩٥٨ وسقوط النظام الملكي، عاد إلى بغداد، وأصدرها مرة أخرى صحيفة "الرأي العام". وبعد ذلك تم انتخابه رئيساً لاتحاد الكتاب والصحفيين العراقيين، لكن هذه الفترة لم تدم طويلاً. غادر بغداد نهاية عام ١٩٦٠، ومن هناك توجه إلى

بيروت، ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا. وهكذا أُغلقت جريدته الأخيرة إلى الأبد. وبعد سقوط وزارة عبد الكريم قاسم وصعود حزب البعث في العراق عام ١٩٦٨، عاد الجواهري إلى بغداد عام ١٩٦٩، لكن إقامته لم تدم طويلاً. ثم سافر إلى سوريا، وأقام في دمشق، إلى أن توفي هناك عام ١٩٩٧، بعيداً عن وطنه. (العلوي، ١٩٦٩: ١٨١-١٨٢).

١-١ بيان المسالة:

يظهر الشعر العربي في العصر المعاصر مواكباً ومتزامناً للتطورات الاجتماعية. وفي هذا السياق يمكن اعتبار الشعر العربي من الآداب الرائدة في عكس وتحليل القضايا السياسية. لقد انخرطت أرض العراق في إبداع الأعمال العظيمة لوجود شعراء طيبين وذوي أخلاق جيدة لا يتخلفون عن الأدب العربي. والجواهري هو أحد هؤلاء الشعراء الذين تحدثوا في فصول وموضوعات مختلفة. لكن السؤال هو هل اهتم هذا الشاعر بالمواضيع الاجتماعية والسياسية في أعماله؟ وهذه هي النقطة التي نعتزم تناولها في هذا المقال.

١-٢- منهج البحث العلمي:

هذا البحث من النوع الوصفي التحليلي، وقد تم إجراؤه بالطريقة المكتبية من خلال الرجوع إلى الوثائق الأصلية والموثقة. وفي هذا الصدد، فإن المجتمع الإحصائي المستهدف هو جميع قصائد الشاعر ومؤلفاته. وبعد التحقق من المصادر تم مسحها وتحريرها وتنظيم المقال.

٢- المناقشة الرئيسية

١-٢- دراسة المواقف الخاصة المناهضة للاستعمار للجواهري

وفي هذا الجزء من البحث، وبعد الوقوف على مواقف الجواهري المناهضة للاستعمار في أحداث مهمة مثل معاهدة بورتسموث (١٩٤٨)، وثورة ١٩٥٨، سنناقش موقفه من قضايا مثل اليسارية، وكردستان العراق، وأخيراً حزب البعث.

١-١-٢- انعكاس معاهدة بورتسموث (١٩٤٨) في شعر الجواهري

وفي عام ١٩٤٨ جرت محادثات بين صالح جبر والحكومة البريطانية، أسفرت عن إبرام اتفاقية بورتسموث. وبموجب هذه الاتفاقية لم يسمح للعراق بالتعاون مع أي حكومة

أخرى إلا بإذن من إنجلترا. وقد أثار هذا الاتفاق المشين ردود أفعال قوية من قبل الأهالي. (قدورة، ١٩٨٥: ١٤٩)

محمد مهدي جواهري، مع شرائح أخرى، عارض حكومة بغداد، وأدانها، ووصف أن جيش القمع يستعين بنوعه، أي من خونة الوطن والأجانب الذين ينشرون خيوط العنكبوت ويحاصرونهم. بأنفسهم، ويفعلون أشياء ضارة بأنفسهم. ويذكر أخيرًا أن الجيش الأجنبي سيرى الهدف والغرض من فكرة الأمة غير المسلحة. سيعود هذا الأمة، وتذيب السهام والمدافع الأعداء، وتستهدف سلاسل الأسرى والمتمردين والظالمين:

وجيوشُ بغيٍ تستعينُ بِمثلِها ... مِن خائني وطنٍ ومِن دخلاء
نسجُوا نسيجَ العنكبوتِ وها هُم ... منه بِليلةِ حاطبٍ عشواء
سَيري عَتادُ الأجنبيّ بِعينِه ... مَرمي عقيدةِ أمّةٍ عَزلاء
ستعودُ تُصهر طَلَقةً و قَذيفةً ... ترمِي الطغاةَ سلاسلُ السّجناء

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٤: ٢٢١)

وكان هذا هو الوقت الذي استشهد فيه أخوه - جعفر - أثناء الحراك الثوري الشعبي العراقي على يد جنود بغداد الخونة، وشارك في تشييعه ما يقرب من مليون شخص من أبناء تلك الأرض. وكتب الجواهري الرثاء الشهير "أخي جعفر" موجها إلى أخيه. وفي هذه الرثاء يخاطب أخيه الشهيد ويقول له: "هل تعلم أم لا أن جراح الضحايا كأفواه تصرخ للفقراء والجياع وتقول إن دمك يسيل حتى يسيل؟" كنت راضيا. ويدعو فئة الأذلة إلى إذلال قومكم حتى تحترموا:

أتَعْلَمُ أنتَ أمْ لا تَعْلَمُ ... بِأنّ جِراحَ الضّحايا فمُ
يصيحُ على المُدقِعينَ الجياع ... أريقوا دماءَكم تُطعَموا
ويهْتِفُ بِالنّفرِ المُهطِعينَ ... أهينُوا لِئامَكم تُكْرَموا

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٢٥٩)

ثم يخاطب أخيه هل تعلم أن جرائم الظالمين كثيرة وتثقل على رقابهم وتمتلئ بطونهم من المال الحرام ويهضمون كل شيء. وهل تعلم أن جراح الشهيد تسأل دائما متى سيتم

الانتقام؟ ودم الشهيد يهضم كل ما يأكله من الجوع:

أتعلَمُ أنّ رِقابَ الطُّغاةِ ... أثقَلَها الغُنْمُ والمأثَمُ
وأنّ بطونَ العُتاةِ التي ... مِن السُّحتِ تَهضِمُ ما تهضمُ
أتعلمُ أنّ جِراحَ الشّهيدِ ... تَظَلُّ عنِ الثّأرِ تستفهِمُ
أتعلمُ أنّ جِراحَ الشّهيدِ ... مِن الجُوعِ تَهضِمُ ما تَلهمُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٢٥٩)

ومرة أخرى يخاطب أخيه فيقول: يا أخي جعفر أنت حنان الربيع الذي استودعته القبر. والحقيقة أن استرجاع السنوات الماضية، من بعدك، يظل بمثابة صوت غير مفهوم بالنسبة لي. لقد أمضينا ثلاثين عامًا معًا، وفي تلك السنوات كنا أحيانًا في العذاب، وتارة أخرى كنا صالحين، وعشنا في راحة:

أخي جعفراً يا رُواءَ الرّبيعِ ... إلى عَفِنٍ بارِدٍ يُسلَمُ
أخي جعفراً إنّ رجعَ السّنينَ ... بَعْدك عندي صَدِيٌ مُبْهَمُ
ثلاثونَ رُحْنا عليها معاً ... نعذَّبُ حيناً ونستنعِمُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٢٦٠)

وأخيراً يعد الشاعر أخاه بمستقبل مشرق فيقول: يا جعفر، لا أتخيل، ولا أتكلم كذباً. واعلم أن المتعطش للدماء يستيقظ ولا ينام أبدًا. ولكن كما يلهم الصابرون، والملهم يعلم الغيب، أرى ضفة تنيرها الدم الحارة النقية، والنجوم قد غابت عن الأنظار، وأرى يدًا من وراء الستار تمتد يخرج ويرسم في الأفق ما يريد:

أخي جعفراً لا أقولُ الخَيالَ ... وذو الثّأرِ يقْظانُ لا يَحلُمُ
ولكن بما ألْهِمَ الصّابرونَ ... وقدْ يقرأ الغيبَ مُستَلهِمُ
أرى أفُقاً بِنجيعِ الدِّماءِ ... تَنوّرَ واختفتِ الأنجُمُ
وكفّاً تمدُّ وراءَ الحجابِ ... فترسُمُ في الأفْقِ ما تَرسُمُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٢٦٠)

بعد كتابة هذه القصيدة، تم سجنه من قبل الحكومة آنذاك وتم اعتقال الصحف التي نشرتها. بالإضافة إلى ذلك، أجبروه على الفقر والعوز حتى يموت أهله جوعاً، وبهذه الطريقة، من خلال الضغط النفسي عليه، منعوه من كتابة قصائد قاسية ضد الحكام العملاء (العلوي، ١٩٦٩: ١٨١).

٢-٢- انعكاس ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في قصيدة الجواهري

في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨، أطاح الفريق أول عبد الكريم قاسم، أحد كبار قادة الجيش العراقي، مع العقيد عبد الكريم عارف، بالنظام الملكي العراقي الذي استمر ثمانية وثلاثين عاماً، وأنشأا أول حكومة جمهورية في هذا البلد. (خيري، ١٩٨٠: ١٠٢)

وقد دعم الجواهري هذه الثورة وكتب قصيدة "باسم الشعب". وكانت ثورة ١٩٥٨ في نظر الشاعر بمثابة ريح عاتية قوية قضت على الظالمين، ومن ناحية أخرى تنفست أرواح الشعب العراقي المتعبة الصعداء. وفي هذا اليوم أشرق في النفوس شعاع شديد الوضوح أشرق في ظلماته نور الهدى:

عَصـفَتْ بِأنـفاسِ الطُّـغاةِ ريـاحُ ... وتَنفَّسَـتْ بِالفَرْحـةِ الأرواحُ

واليـومَ تُشْـرِقُ في النّفـوسِ وضـاحةٌ ... ويُشِـعُّ في حَلكاتِهـا مصـباحُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٤: ٣١١)

ثم يصف الشاعر عبد الكريم قاسم وأصحابه فيقول: شباب من يعرب كانت جباههم مشرقة كالفجر، أهلك الظالمين. وداس العظماء والغيورون الذين كان يقودهم القائد العظيم على رؤوس العبيد. وهذا القائد العظيم يفتح الآفاق باسم الأمة، وغداً باسمه تتحقق عظمة الأمة وتتجلى:

جـدعتْ عـرانيناً غِلاظـاً فِتيـةٌ ... مِـن يَعْـرُبٍ غُـرُّ الجبـاهِ صـباحُ

ومشَـتْ علـى هـامِ العبيـدِ جَحـاجحُ ... شُـمُّ الأنـوفِ يقودُهـا جَحْجـاحُ

يجتـاحُ بِاسـمِ الشّـعبِ وغـداً بِاسمِـه ... راحـتْ كرامـةُ أمّـةٍ تُجتـاحُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٤: ٣١١)

وفي الأبيات التالية، ينظر الجواهري إلى تجوال طالبي الرفاهية والراغبين في مزيد من الحكم في سجون الثورة، والذي يصاحبه ذروة الجبن، كتسليم سهام الصيد في أيدي الصيادين، ومن ثم فهو يقول: السلاسل الوقحة التي قُيدت في أيدي أئمة الأخلاق القبيحة، وطهرت طباعهم، والمتكبرون على الناس كالجهال المعرضين عنهم، فيعاملون بالتكبر:

النّاعمـــونَ المترفـــونَ أجـــالهم ... وســطَ الحديــدِ كمــا تُجــالُ قِــداحُ

والسّــادةُ الوقِحــونَ هــذَّبَ طــبعَهم ... زَرَدٌ يَعُــضُّ علــى اليــدينِ وَقــاح

والشّــائحونَ عــن الجمــوعِ تصــعُّراً ... خرفــونَ يُلْــوي عنــهم ويُشــاحُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٤: ٣١١)

وفيما يلي، فإن رؤوس المنتفعين المقطوعة على صدورهم لها تأثير خاص من حيث الجواهري، لأنها دفء قلب الأمة ودليل على دروس العصر:

كانــتْ قِباحــاً في الــرؤوسِ وجــوهُهُم ... واليــومَ وهــي علــى الصّــدورِ مِــلاحُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٤: ٣١١)

وأخيراً يقول الشاعر: ومع قيام الثورة ارتفع حجاب التزوير عن وجه حكام العراق الخونة، وانكشف خداعهم للجميع. وقد أذلهم إنسان نبيل، وأظهر لهم عبد الكريم كيف يحبس العظمة:

زادَ ملامحُهــــم غَبــــاءً وانجلــــي ... زَيْــفُ الغــموضِ بهــا فهــنَّ فِصــاحُ

هــــانَ الكــــريمُ علــــيهم فــــأرَيتَهُم ... كيــفَ الكرامــةُ تُسْتَــبي وتُبــاحُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٤: ٣١١)

إلا أن العلاقات الطيبة بين الجواهري والنظام الجديد في العراق لم تدم طويلاً؛ ولم يمض وقت طويل حتى نشب خلاف بينه وبين قائد الثورة -عبد الكريم قاسم- لأنه أمر بحبسه وحدد إطلاق سراحه مقابل كفالة خمسين قطعة نقدية. وكان سبب هذه الإهانة للجواهري هو قصيدة قرأها خلال حركة عيد العمال الوطني عام ١٩٦٠، واعتبر البعض أن مضمون هذه القصيدة هجوم على الثورة وقيادتها وتشجيع العمال على اليقظة ضد ما يمكن

أن يحدث. الأخطار التي تسبب التغيرات كان ذلك خلال الثورة العراقية. ويعتبر أهداف قائد الثورة أهدافا عقيمة وغير مثمرة تدمر الصحارى والأراضي اليابسة بلا ماء ولا عشب، ووصف رؤوس العمالقة والشياطين في تلك الصحراء بأنها ثمرة نخلة، ثم أهدافهم يعرفه كالسراب ويقول: عندما تجري وراء سراب خادع، يظهر سراب جديد. وأخيراً، يطلب من الناس ألا يسلكوا طريق النضال بسهولة؛ لأن أمامهم مسافة طويلة للوصول إلى وجهتهم. ويأخذون وقتهم غنيمة وهم له طامعون:

فـــــإنّ وراءَكـــــم غـايـــــــةً ... ســـتُطوي مفـــاوزُ منـــها وبِيـــدُ

كـــــأنّ رؤوسَ السَّـــــعالِي بـــــها ... وهـــامَ الشّـــياطينِ طلـــعٌ نضـــيدُ

إذا مـــــا ركضـــــتم إلى خُلَّـــــبٍ ... ســـرابٍ تبـــدّي ســـرابٌ جديـــدُ

فـــلا تســـتهينوا بـــدرْبِ الكفـــاحِ ... فـــدونَ النّهـــايةِ شـــوطٌ بعـــيدُ

خُـــذوا يـــومَكم مغنمـــاً و احرصـــوا ... عليـــه و زيـــدوه حِرصـــاً و ذودُوا

(الجواهري، ١٩٧٥م، ج٥: ٢١)

أحدثت هذه الضمانة البالغة خمسين قطعة نقدية جرحًا عظيمًا في قلب الجواهري، وكان عزيزاً عليه لدرجة أنه شهد عليه في محكمة التاريخ، وقد ذكر في مذكراته هذا الحدث بشجاعة باعتباره مصيبة عظيمة وثقيلة سقطت على العراق. ويعتبر الرابع عشر من حزيران ١٩٥٨ يوم ضلال الحكومة وانفصال المجتمع عن القانون المدني وعودة العراق إلى حالته البدائية والحرب بعد هزيمة اليأس ويقول: "لقد عاد إلى الشغف مع الحزن مرة أخرى، وفي مثل هذه الحالة يمكن القول إن الندم قد جاء إلى. اتندم على هذا؛ أتمنى أن تكون هناك حكومة بدلاً من هذه الحكومة، التي يختلط خيرها وبركتها بشرورها ومصائبها؛ لأن نصيبي وغيري من هذه الحكومة لم يكن إلا أن نسمع الكثير من الشتائم، وأن نتعرض للضرب والهجوم الواحد تلو الآخر. ومثل هذه الحكومات والأنظمة ما زالت تعمل في العراق حتى اليوم. كل هذا حدث لشعب العراق المظلوم، حتى قام ضابط في الجيش اسمه عبد الكريم قاسم بثورة ذات ليلة في حزيران/يونيو ١٩٥٨، وأقام حكومة جمهورية لم نشهد مثلها من قبل، ولن نراها بعد هذا". (الجواهري، ١٩٩٨، المجلد ٢: ٧٧)

٢-٣- موقف اليسارية في شعر الجواهري

وفي المجتمع العراقي، كان الجواهري يعتبر ممثلا للحركة الشيوعية اليسارية والمحافظة. وكان خطيباً فصيحاً أثناء الحراك والانتفاضة، والدفاع عن المظلومين والفقراء. وتظهر قصائد الأربعينيات، وخاصة "سفيستبول، ستالينجراد"، ميله نحو الجناح الأيسر. عندما هاجمت القوات النازية الألمانية مدينة سيفاستوبول، قاومهم أهل وجنود القاعدة البحرية لتلك المدينة حتى قُتلوا. بعد مشاهدة فيلم هذه الكارثة، ينفعل، ويصف تلك المدينة بطريقة يرسل فيها تحياته أولاً ثم يتمنى ألا يكون هناك أي ضرر لعظمتها وأن يستخدم أهلها سيوفهم دائمًا. كن حادًا وانتصر:

يـــا سواســـبولُ ســـلامُ ... لا يَنَـــلْ مجـــدَكِ ذامُ

لا عَـــرا السّـــيفَ حُســـاماً ... ذَرِبَ الحـــدِّ انـــثِلامُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٣٣)

ثم يصف شجاعة وبطولة القوات السوفيتية في الدفاع عن الوطن فيقول: إنهم شعب متحد، ولا يوجد بينهم انقسام أو تراجع، ومن سماتهم المميزة؛ إنه الإيمان والتضحية والعدالة والوئام. وبعد ذلك يشيد بالنظام الذي يحكم هذه الأمة والذي لا جوع فيه ولا جهل ولا تعسف. ثم يذكر أن الأرض في هذه البلاد لأهلها مقسمة بالحق، وليس الفلاح كالعبد المعروض للبيع، ولكن ما يزرعه فهو يملكه:

أمّـــةٌ لا صَـــدْعَ فيهـــا ... لا ارتجـــاعٌ لا انقســـامُ

إنّـــه الايمـــانُ إيثـــ ... ـــارٌ وعـــدلٌ ووئـــامُ

مُثُـــلٌ زالَ بـــها جُـــو ... عٌ وجهـــلٌ واحتكـــامُ

هكـــذا ثُنْبـــتُ أرضٌ ... هـــي بـــالحقِّ اقتســـامُ

يَمْلِـــكُ الـــزّارعُ مـــا يـــز ... رَعُ لا عَبـــداً يُســـامُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٣٣)

في بداية قصيدة "ستالينجراد" التي كتبها عام ١٩٤٣، واسمها مشتق من اسم ستالين،

يصف جواهري علم الدولة السوفيتية الذي تلطخ بالدم بسبب انتفاضة الشعب ضد هجوم المحتلين:

نَضَّـــتْ الـــرّوحُ وهزَّتْهـــا لـــواءُ وكَســـتْه واكتســـتْ منـــه الـــدِّماءُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٥٣)

وفي الأبيات التالية يمتدح ستالين ويقول: يا ستالين ما أحلى وأجمل نطق اسمك، وهو اسم يصعب نطقه لثقل وكرامة حروفه. والعالم يتوقع منه - ستالين - تحقيق الحرية والرخاء والأخوة:

يـــا ســـتالينُ ومـــا أعـــظمَها في التـــهجّي أحرُفـــاً تـــأبي الهجـــاء

أحـــرفٌ يســـتمطرُ الكـــونُ بهـــا إنعتاقـــاً وازدهـــاراً وإخـــاء

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٥٣)

ثم وقف لصالح جيش ستالين، ومن خلال الديالكتيك يظهر الصراع على ضفتي نهر الفولجا، الذي من ناحية الجيش النازي الساعي للحرب بقيادة هتلر، ومن ناحية أخرى الدفاع السوفييتي. تم وضع الجيش بقيادة ستالين في مواجهة بعضهما البعض يخاطب الشاعر نهر الفولجا ويقول: يا عروس الفولجا، لقد أديت أداءً جيداً للغاية، عندما أصبح نهر الفولجا داميًا بسبب الكوارث الشديدة. وتلون نهر "الدون" بدمين طاهرين - جيش ستالين - ونجس - جيش هتلر - اللذين كانا متباعدين. وظلت أمواجه (النهر) تتدفق صباحا ومساء حاملة هذين الجيشين المتعارضين. وعلى جانبي ذلك النهر كان هناك عظمتان كانتا رمز فترة الانحطاط والتقدم:

يـــا عـــروسَ الفلـــغِ والفلـــغا دمٌ ســـاءت البلـــوي فأحســـنت الـــبلاء

صبـــغ الـــدونَ دمـــاءينِ همـــا بُعـــدُ بـــينَ الـــرِّجسِ والطهـــر التقـــاء

وجـــرَتْ أمواجُـــه حامـــلةً فوقَهـــا الضـــدّينِ صـــبحاً ومســـاء

وعلـــى الجُـــرفينِ عظمـــان همـــا رمـــزُ عهـــدَيْنِ انحطاطـــاً وارتقـــاء

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٥٣)

ثم يخاطب تولستوي ويقول إن ثورة الفكر لم تختف ولم تتناثر كالغبار. ويرى جواهري أن الثورة الفكرية التي أحدثها هذا الفيلسوف الروسي تمت في النظام الاشتراكي حتى أصبح كل الشعب أغنياء، والذين كانوا عمالا في الماضي أصبحوا الآن أصحاب الأرض ومنتجاتها:

يـــا تولســـتوي ولمْ تـــذهبْ سُـــديً ... ثـــورةُ الفكـــرِ ولا طـــارتْ هَبـــاء

يـــا ثريـــاً وهـــبَ النـــاسَ الثـــراء ... قُـــمْ تـــرَ النـــاسَ جميعـــاً أثريـــاء

قُـــمْ تَجِـــدْهم مـــالكِي غَلّـــتِهم ... مَـــن علـــى عهـــدِك كـــانوا الأجـــراء

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٥٤)

ودخلت الأسماء المذكورة في الأدب العراقي من خلال شعراء مثل الجواهري، وتم تقديم أسماء المدن والأماكن السوفيتية مثل سفستبول وستالينغراد وغيرها إلى الشعب بهذه الطريقة. وأيضا تم استخدام كلمات مثل؛ الأنصار والسلام ووسام الشهادة على نطاق واسع في الأوساط السياسية والجامعات. (شعبان، ١٩٩٧: ١٢٣)

موقف الجواهري من قضية كردستان العراق:

إن مشكلة الأقلية العرقية الكردية كانت ولا تزال أكثر حدة بالنسبة للعراق من أي قضية أخرى. ويعيش الأكراد في شمال البلاد وفي مناطق السليمانية والموصل وكركوك ورافاندوز. ويعيش معظمهم كبدو رحل وسكان خيام، وبعضهم اختار العيش في المدن. وبسبب الاختلافات الدينية والسياسية والثقافية وحتى بسبب التخلف الاقتصادي، فإنهم غير قادرين على تشكيل حكومة مستقلة أو تتمتع بالحكم الذاتي. ومن ناحية أخرى، فإنهم ليسوا على استعداد لقبول السيادة المطلقة للحكومات المركزية.

ترتبط قضية الأكراد بالسياسة الاستعمارية البريطانية والسوفيتية. بعد الحرب العالمية الأولى، فكر البريطانيون لبعض الوقت في تقسيم وإنشاء كردستان تحت حماية لندن؛ لأنه كان ينوي التقرب من منطقة القوقاز بهذه الطريقة. ومن ناحية أخرى، كانت كردستان وسيلة لإنجلترا لمزيد من السيطرة على أتاتورك ورضا خان وأمير فيصل. لكن إنجلترا تخلت عن هذا القرار. لأنه أدرك أن وجود كردستان المستقلة قد يصبح فيما بعد مركزاً للمكائد

والاضطراب، ويخل بتوازن الشرق الأوسط. (الخرسان، ٢٠٠١: ١٥٤)

وفي سبتمبر ١٩٣٠، قام الأكراد بتمرد كبير ضد الحكومة المركزية في العراق، والذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ القومية الكردية. ومن هذا التاريخ تولى الملا مصطفى بارزاني القيادة السياسية والدينية، واستقر في السليمانية حوالي عام ١٩٣٦. استمرت إقامته هناك حتى بداية الحرب العالمية الثانية. (الخرسان، ٢٠٠١: ١٥٤).

وبعد وصول البعثيين إلى السلطة نتيجة انقلاب في ٨ فبراير ١٩٦٣، ذكر أول إعلان أصدره المجلس القيادي للثورة الوطنية العراقية أن العراق دولة واحدة، وأن الشعب الكردي والعربي لديهم حقوق متساوية. تم تقسيم العراق إلى ستة مناطق، إحداها المنطقة الكردية ومركزها محافظة السليمانية. وأصبح هذا الإقليم مستقلاً من الناحية الداخلية والتعليم والصحة والنقل والتجارة والزراعة والإدارة، لكن بارزاني لم يقبل بهذه الخطة. لأن منطقة كركوك الغنية بالنفط لم تكن ضمن محافظة السليمانية. ولذلك دارت حرب قاسية ومرهقة بين الطرفين، وهزمت القوات العراقية الأكراد بمساعدة الطيران الحربي ومساندة الجيش السوري، واضطر الأكراد إلى الفرار إلى المناطق الجبلية. (الخرسان، ٢٠٠١: ١٥٥).

أحد الشعراء العراقيين الذين تناولوا قضية كردستان وكتبوا قصيدة بنفس الاسم، اهتم فيها بالشعب الكردي، هو الجواهري. قرأ هذه القصيدة في اتحاد الطلاب الأكراد في ميونيخ بألمانيا عام ١٩٦٤. وتزامن هذا التاريخ مع الهجوم العسكري الذي شنته حكومة البعث على الأمة الكردية والذي استمر منذ عام ١٩٦٣. في هذه القصيدة أعطى الشاعر أغلى الأشياء قلبه ولسانه لكردستان، ثم يقول: في الواقع، أحياناً يغفر الفقير بقلبه ولسانه:

قلبي لِكُردستانَ يُهدي والفمُ ولقدْ يَجودُ بِأصْغرَيْهِ المُعْدِمُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٣٤٥)

ثم يحلف برسول الله ﷺ الذي تحلف به الأمة في الحرب. بعد ذلك أشاد الملا مصطفى البارزاني بزعيم الحركة الكردية وقال: هو الشخص الوحيد الشجاع الذي يحيط به المحاربون الذين يحملون الشارات ويخافون منه، وله وجه شرس كالنسر. الرمادي والأسود يخافون من نظراته القاسية:

بإسمِ الأمينِ المُصطفى مِن أمّةٍ ... بحياتِه عندَ التّخاصمِ تُقسمُ

ستري الكماةَ المعلمينَ تَحَلَّقوا ... فَذاً تهيبُه الكمِيُّ المُعلمُ

صُلب الملامحِ تتقي نظراتِه ... شُهْب النّسورِ ويدَّريها الضّيغمُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٣٤٦)

ثم يشير إلى دور عبد الكريم قاسم وصعوده الذي تزامن مع الوضع الحرج الذي شهده العراق، فيقول: الستينات خلقت فجوة طبقية بين الناس، فباركت فئة وحرمت فئة أخرى. وفي الأبيات التالية يعتبر الشاعر عبد الكريم قاسم شخصاً غبياً ومجرماً؛ لأنه سمح له بالقسوة، بينما كان يكره الظلم، وكان ينكر ويستصغر من هم أكرم من أبيه وجميع أقاربه، وكان لهم مكانة عالية، ويعاملهم كالملابس الفضفاضة المُدانين على عجل ترحيلهم إلى الخارج:

ستّونَ راحتْ في النّفوسِ تقسم ... تُعطِي عطاء الأكرمينَ وتحرمُ

أبي الهضيمةَ واستباحَ هَضيمتِي ... فيما استباحكَ أحمقٌ متجرمُ

ألوى بِمَنْ عندي وعندي صفوةٌ ... هي مِن أبيه ومِن ذويه أكرمُ

ورَمي بهم خلف الحدودِ كأنّهم ... بُرُدٌ إلى الأمصارِ عجلي ترزمُ

(الجواهري، ١٩٧٤م، ج٣: ٣٤٧)

٤-٢- موقف الجواهري من حزب البعث

وفي تموز/يوليو ١٩٦٨، حدثت ثورة عسكرية، ووصل حزب البعث إلى السلطة في العراق. ودعا النظام الجديد إلى العفو الوطني، كما أصدر عفواً عن السجناء السياسيين والمعتقلين أثناء عودتهم إلى وظائفهم السابقة. وطلب من المهاجرين العراقيين العودة إلى وطنهم. (العطية، ١٩٩٨: ١٢١)

وكان الجواهري في طليعة المهاجرين الذين عادوا إلى العراق، واستجاب لهذه الدعوة. وعاد الشاعر إلى بغداد، وقد لقي ترحيباً حاراً وتقديراً من رجال الثورة وقائد حزب البعث. وأقيم له حفل تذكاري خططت له وزارة الثقافة والإعلام. ولم يكن التقدير

للجواهري كافياً، بل أصدر قانوناً خصص بموجبه للجواهري معاشاً قدره مائة وخمسون ديناراً شهرياً. (العطية، ١٩٩٨: ١٢١)

كتب الجواهري قصيدة عن قادة حزب البعث العراقي؛ وغنى أنشودة "أبا الشعار" في لقاء مع "أحمد حسن البكر". وفي هذه القصيدة يشيد بقادة حزب البعث الذين صححوا الخطى بكل ثقة واعتزاز. وفي الأبيات التالية يذكر أحمد حسن البكر وصدام حسين. ويصف أبا الهيثم -أحمد حسن البكر- الذي شمل طيبته وفضله كل الناس، ثم يمتدح صدام حسين الذي لا مثيل له في مروءته وحشمته، وشجاعته، واستباق الوقت لمهاجمة العدو. وبعد ذلك يصف قيادات حزب البعث بأنهم أقوياء في يوم النضال لا يخجلون من الخوف والرعب:

نَعِمْتُم صَبَاحاً قَادةَ البعثِ أصيَداً ... يُسدِّدُ خَطْوَ الصِّيدِ منكم وأغْلَبا

أبا هيثمٍ يا مُوسعَ النّاسِ حلمَه ... أفاءَ عليهم ظلَّه وتَحَدَّبا

ويا ابنَ الحسينِ الفذِّ شَهْماً سَمَيْدَعاً ... مَهيباً وَثوباً قبلَ أنْ يَتوثَّبا

سواعدُكم يومَ الكفاحِ وبُوعُكم ... إذا ما تأتَّي ساعدٌ وتَهيَّبا

(الجواهري، ١٩٨٠م، ج٧: ١٢٣)

وفيما يلي يطلب من قادة البعث التخلي عن خلافاتهم مع الحزب الشيوعي "الحليف"، ودعمه، وعدم إسعاد العدو بإيذاء أنفسهم وذاك الحزب. وتجاهل زلات قادتها. وإذا كان في هؤلاء زلة صغيرة فلا تلومهم؛ لأنه لا يوجد إنسان خالي من الأخطاء. وأخيراً، حسب اعتقاد الشاعر، لا يمكن لأحد أن يمحو كل الأخطاء من وجوده ليصبح نقيًا نقيًا، ويكره الأشخاص الذين نشأ بينهم:

فلا تُخْذِلُوا منهم «حليفاً» مقرّباً ... ولا تُشمِتُوا فيهم وفيكم مُجَنَّبا

فلا تأخذوهُم في هَناةٍ وأختِها ... فمَن ذا الذي لمْ يعترفْ فيه مَثلَبا

ومَن ذا الذي جَبَّ الخَطايا تَنزُّهاً ... وعافَ الوري في طينِهم تَربَّبا

(الجواهري، ١٩٨٠م، ج٧: ١٢٤)

٣ـ الخاتمة:ـ

ومن خلال دراسة شعر الشاعر العراقي المعاصر محمد مهدي جواهري، يمكننا أن نرى انعكاس الأفكار السياسية العراقية في شعره. عاش الشاعر نفسه في أسرة ثورية لدرجة أن والده شارك في النضال ضد الإنجليز أثناء الاستيلاء على البصرة واستشهد شقيقه في الصراع السياسي داخل العراق. ومن بين انعكاسات الموضوعات السياسية في شعره يمكن الإشارة إلى معارضة إبرام معاهدة مع إنجلترا رمز الاستعمار. الدعم الأولى لثورة ١٤ يوليو والثوار مثل عبد الكريم حسن ثم معارضتهم، هي موضوعات سياسية أخرى تنعكس في شعره. وتظهر في قصائده الميول اليسارية ودعم ستالين والحروب السوفيتية ضد ألمانيا. ومع قيام حكومة البعث وحسن البكر ودعوة المهاجرين للعودة إلى العراق، قام الجواهري بهذا الإجراء أيضاً، ومنذ وصوله إلى المناصب الإدارية، كان أولاً يدعم البعثيين في شعره.

قائمة المصادر والمراجع

١. بصري، مير(١٩٩٤م) أعلام الادب في العراق الحديث، ط١، لندن، دارالحكمة.

٢. البقيلي، فاروق(١٩٧٤م) الجواهري ذكريات ايامي، بغداد، مكتبة الثورة.

٣. بيضون توفيق، حيدر(١٩٩٣م) محمد مهدي الجواهري شاعر العراق الاكبر،١٩٩٣م، بيروت، دارالكتب العلمية.

٤. الجواهري، محمد مهدي(١٩٧٢م) الديوان، الجزء الأول، بغداد، المطبعة البغدادية.

٥. ----------(١٩٧٣م) الديوان، الجزء الثاني، بغداد، المطبعة البغدادية.

٦. ----------(١٩٧٤م) الديوان، الجزء الثالث، بغداد، المطبعة البغدادية.

٧. ----------(١٩٧٤م) الديوان، الجزء الرابع، بغداد، المطبعة البغدادية.

٨. ----------(١٩٧٥م) الديوان، الجزء الخامس، بغداد، المطبعة البغدادية.

٩. ----------(١٩٧٧م) الديوان، الجزء السادس، بغداد، المطبعة البغدادية.

١٠. ----------(١٩٨٠م) الديوان، الجزء السابع، بغداد، المطبعة البغدادية.

١١. ----------(١٩٩٨م) ذكرياتي، ط١، ج١و٢، دمشق، دارالرافدين.

١٢. الخرسان، صالح(٢٠٠١م) صفحات من تاريخ العراق السياسي الحديث، ط١، بيروت، مؤسسة العارف.

١٣. خيري، سعاد(١٩٨٠م) ثورة ١٤ تموز، ط١، بيروت، دار ابن خلدون.

١٤. شعبان، عبدالحسين(١٩٩٧) الجواهري جدل الشعر و الحياة، بيروت، دار الكنوز الإسلامية.

١٥. قدورة، زاهية مصطفي(١٩٨٥م) تاريخ العرب الحديث، بيروت، دارالنهضةالعربية.

١٦. -عطية، جليل(١٩٩٨م) الجواهري شاعر من القرن العشرين، ط١، كلن آلمان، منشورات جمل.

١٧. العلوي، هادي(١٩٦٩م) محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية، بغداد، دارالعربية.